نهضة المعارف فى مصر

على مبارك باشا

أرادنى بعض أفاضل التعليم الإلزامى أن أكتب كلمة فى مجلتهم المتينة ، فأحسست انشراحا فى نفسى للكتابة وعولت على اختيار موضوع أمس بهم وأليق بمدارج حياتهم العملية ، ونحن مدرسى مدارس المعلمين الأولية التى يتخرج رجال التعليم الإلزامى على أيديهم أقرب الناس إلى آمالهم وأمانيهم وأشدهم حدبا عليهم ورجاء الخير لهم فى مستقبلهم إذهم منا بمنزلة القرابة القريبة نغذيهم بلبان العلم فى دور الطلب ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، حتى إذا عهد إليهم تعليم النشء رجونا لهم التوفيق . فلا غرو إن رأيتنى أمس للكتابة فى مجلتهم وأعيب بهم أن يكون العلم والدرس أقرب الأشياء إلى نفوسهم وأن يعطوه من فراغهم أوفر الأنصبة ، وأحسب أن الآمال الواسعة والهمم القوية لا تقنع بإحراز شهادة المعلمين الأولية ثم قضاء العمر فى مدرسة إلزامية ؛ أحسب الحياة أضخم من ذلك وأوسع مجالا والنفس الكبيرة لا تحجزها السدود ولا تقف فى طريقها الأوضاع

أريد لمدرس التعليم الإلزامى أن يوسع مجال أفقه وأن يلتمس الخير من طريق القراءة والدرس فيكون واسع الخبرة فى مواده التى يدرسها عالما بها مطلعا على أعمق مصادرها ، ومواد الدراسة متشعبة الأصول والفروع من ثقافة دينية إلى ثقافة عربية إلى غير ذلك وكلما اتسعت مادته وقوى يقينه وتفنن فى طرق التدريس وشعر براحة فى عمله وباطمئنان نفسه لما يقدمه للنشء من نور وتثقيف .

والدراسة الشخصية فى العصر الحديث أيسر الأمور وأقرب الأشياء وإنما تحتاج إلى اتجاه الذهن وتوفير الوقت ، فرتله المطبوعات فى كل علم وفن والمجلات العلمية والأدبية مورد صاف عذب المشارب ، فإذا كان المدرس الإلزامى كذلك ـ وأعتقد أن كثيرا من المدرسين الإلزاميين فى نواحى القطر المختلفة كما وصفت ـ عظم عنده الأمل واقترب من النجاح فى مطالبه وسلك السبيل الموفق لتحقيق رغباته .

عند ذلك يبرز منهم البارزون ويساهمون فى فنون العلم المختلفة فإذا شعرت وزارة المعارف منهم بذلك فتحت لهم طريق المستقبل وجعلت التقدم لإحراز الشهادات حقا مشاعا وأتاح العلم لهم مناهج الحياة .

وأعتقد أنه كلما عظمت العلوم والمعارف فى أمة وتضاعف عدد المتعلمين ، سار للثقافة

الشخصية قيمة لاتقل عن الشهادات المدرسية ، وأقرب مثال لذلك ماقرأته في بعض الصحف بسبب زيارة وزير سابق من وزراء انجلترا وأحد أعضاء البرلمان البريطاني بلادنا المصرية واسمه المستر رابس ديفز . قالت عنه الصحيفة (إنه لم يعرف غير المدرسة الأولية ومع ذلك لم يتردد عليها إلا فترات متقطعة ومكث يحرث الأرض ثلاث سنوات ثم هجر بلده ليعمل في مناجم الفحم وظل يعيش في جوف الأرض عشر سنوات وفي أثنائها فكر في تحسين حالته كأنه كان يطمح دائماً إلى حالة أحسن ، وبعد جهود كثيرة حصل على شهادة تمكنه من العمل مفتشا لصحة العامة ، وفي الوقت عينه انتخب أستاذا في مدرسة وانتهي أمره إلى أن صار وزير الداخلية وهو الآن من أقطاب مجلس النواب وهو خطيب قدير ومع أنه لم يدخل المدارس فانه درس وحده ما مكنه في كبره من الكتابة في أشهر الصحف الانجليزية والامريكية) .

هذا تاريخ رجل من عظماء الأنجليز بلغ بجده الوزارة العليا لم تفتح له المدارس في إبان نشأته ولاقى من مشاق الحياة أقدحها فلم ييأس المستقبل وظلت نفسه الطامحة تنسج الخيوط حتى برز في طليعة العظماء :

وقبيل هذا الشهر شهر رمضان المعظم زرت بعض المدارس الالزامية بشطا لأراقب طلبة مدرستنا في تمرنهم على التدريس فلاحظت أن المدارس الالزامية خالية من مكتبة تعين المدرس على عمله وخاصة المراجع للمواد المقررة فياحبذا لو عنيت وزارة المعارف باتقاء كتب صالحة من كبيرة وصغيرة واشتركت لهذه المدارس في المجلات النافعة عند ذلك تكون لكل مدرسة إلزامية مكتبة لائقة تزيد مجلداتها على مدى الأيام :

وأعتقد أن من الخير أن يلجأ رجال التعليم الالزامي إلى معالي وزير المعارف حلمي عيسى باشا ليحقق لهم هذا المطلب فهذا الوزير منجم من مناجم الفضل والنبل في مصر وأسرع الناس الى الخير وأشدهم حرصاً على تقدير مجهود مرءوسيه وتيسير النفع لهم .

هكذا رأيت أن أبث عقيدتي في المستقبل لمتقي النشء وواضعي البذرة الأولى لنبات المصري

ثم رأيت أن أكتب عن شخصية عظيمة عصامية هي شخصية علي مبارك باشا صاحب الفضل الأول على التعليم الحديث وهو الذي وضع في الزيت الفتيلة حتى نما نور السراج ، وأضاء الأفق وصار المصباح كوكبا دريا أوقد من شجرة مباركة وحق فيه قول النابغة الذبياني في عصام بن شهبر صاحب النعمان بن المنذر ملك الحيرة :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والاقداما

وصيرته ملكا هماما حتى علا وجاوز الأقواما

لاقى على مبارك باشا كايد الأهوال فى سبيل التعلم والتعليم وأزال عقبات كانت تصده لولا همة دونها همة الأبطال فى ساحة الوغى

ولد على مبارك فى برنبال الجديدة من مديرية الدقهلية ونزحت أسرته الى مديرية الشرقية بسبب الساعة فى عهد منشىء مصر الحديثة محمد على باشا ؛ ولا بد أنه سمع وهو صغير عن الحياة الجديدة التى قلبت الأنظمة البالية فى مصر وأعدت المصريين لمستقبل نظر إليه الناس فى القرى خاصة نظرة الريبة والحذر لأن أذهانهم لم تكن معدة لفهم الحياة الحديثة ينظرون إلى محمد على نظر فرنسا إلى نابليون فى عهد الامبراطورية ، وفى الدور الأخير بعد أن دوخ النمسا والروسيا وأسبانيا بجمع أبنائهم ليلقى بهم فى أتون الحروب لتدويخ العالم فكانت نفس هذا الناشىء تنظر فى أفق ملبد تلمح فيه شعاع الشمس الضئيل من حين إلى حين فلم يرتض على مبارك الاكتفاء بالتعليم الساذج فى القرية ثم العمل فى الحقل وطمحت نفسه إلى المراتب التى يرتقى إليها السادة تلك أن يعمل للحكومة أى عمل فيصبح نظيف الثوب عالى القدر ؛ فاتصل برجل أسود الجلد يدعى عنبر افندى مأمور زراعة القطن فى (أبو كبير) واشتغل كاتبا له بأجر شهرى ضئيل

ولكن على مبارك الفتى أعجب غاية الاعجاب برئيسه عنبر افندى رأى فيه سمو أخلاق ونبالة نفس وكرم طباع وحسن تصرف، فعجب أن تكون نفسه مشرقة وجلده أسود وعهده بهذا اللون فى الخدم والأجراء والعبيد ، والرؤساء عادة أتراك بيض الوجوه، فأسر إلى بعض الناس ما جال فى نفسه فأجابه إجابة كانت مبعث الأمل فى نفسه قائلا له (لاتعجب أن يكون عنبر افندى كذلك فقد تعلم فى مدرسة قصر العينى وهو أعلم الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك) فى هذه الساعة الرهيبة غلى الدم فى رأس الفتى على مبارك واتجه الى تحطيم الأغلال لمستقبله الضخم الذى انتهى به إلى الوزارة ؛ وكان حسبه من هذا المستقبل أن يكون مثل عنبر افندى مثله الأعلى ولكن القدر يرسم خط السير للانسان من حيث لايعلم وينسج له خيط حياته وربما أراد الانسان أن يكون أمله فى الخيط قدر ذراع ويكون قضاء الله قد طوى له فى كرته عشرات الأذرع فكلما نظر أمامه مد له منه خيطا فما كان لعلى إلا أن يهجر الوظيفة والبلدة وعنبر افندى فيبحث عمن يهديه طريق العلوم والمعارف فالتقى بتلاميذ ذاهبين إلى مدرسة منية العز (١) ففرح بلقائهم فرحا شديدا لعلمه أن من بينهم ينتخب تلاميذ مدرسة قصر العينى بغيته المنشودة فانضم إليهم ولكن أباه أدرك رغبته وجهله مصيره أرجعه إلى القرية وعهد إليه أن يرعى الماشية ، ولم يكن

(١) إحدى المدارس التى أنشأها محمد على باشا

والده قدما جهولا يكره العلم لنجله بل كان فقيه القرية ومستشارها ولكنه خشي بعده عنه فاستعصى عليه اقناع والده ولم يجد بدا من الفرار واشباع نفسه من العلم والمجد بدخول مدرسة منية العز ، وماهي إلا مدة وجيزة حتى رأى أولو الأمر فيه النجابة فاتخيروه لمدرسة قصر العيني سنة ١٢٥١ هجرية وكانت الحكومة إذ ذاك لنفور الناس من التعليم تطعم التلاميذ وتكسوهم وتسكنهم وتعطيهم مرتبات شهرية ؛ ومع ذلك كانوا يرون أن من أخذته الحكومة فقده أهله فظل على يجتهد ويدرس حتى أصيب بمرض جلدي من سوء العناية المدرسية فذهب إليه والده وأراد أن يحمله على ترك المدرسة والعودة إلى البلدة فأبى إباء شديدا وفضل أن يتحمل الأمراض وألا يغادر المدرسة فبكى أبوه لتركه مريضا ولهذه الرغبة الشديدة في العلم وودعه وداعا مؤثرا .

ثم نقل الطلبة ومعهم على من مدرسة قصر العيني إلى مدرسة أبي زعبل لأن عزيز مصر محمد علي أراد أن تكون مدرسة قصر العيني خاصة بالطب

وفي سنة ١٢٦٠ هجرية انتخب على مبارك ليكون مع البعثة المصرية التي تتعلم في فرنسا فذهب إليها ورضع أفاويق العلم والمعارف ماشاء الله أن يستق وكان هو وزملاؤه يتخيلون الأفق المستقبل المزهر وكانا حمعوا عن المناصب الرفيعة التي أستدت إلى رجال البعثة الذين تقدموهم تهللوا فرحا وأيقنوا أن المناصب شاغرة تنتظر عودتهم وأن عزيز مصر محمد علي يرعاهم ويعطف عليهم ويحلهم في منازل أفلاذ أكباده ويعلق على عودتهم الآمال الكبار ولكن هذا الصرح الذي بنوه من الخيال مالبث أن انهار ذلك أن محمد علي اغتاله المنون وابراهيم قضى قبله وأسند الأمر الى عباس باشا الأول فأصدر أوامره بطي الصحف التي نشرها محمد علي وإطفاء المصابيح التي أنارها فأغلقت المصانع وأوصدت أبواب المدارس وعطلت معامل الأسلحة وحلت معاقد الجيوش الجرارة ، ولم يكن مفر من عودة البعثة ليكون مصيرها مصير الفقراء والأكفاء الذين عطلت أيديهم عن العمل وعقولهم من الانشاء وأن يرقد مع الراقدين

فكانت هذه الخيبة الطامة الكبرى والداهية الدهياء على علي مبارك وزملائه من المبعوثين . وقد بقي علينا أن نتكلم عن المترجم له وعن الخدمات التي أداها لبلاده في عهد عباس الاول ونكبته في عهد سعيد ثم صعود نجمه في عهد أبي الأشبال واضع الأساس الذي شاء الله أن يشاد عليه البنيان الدائم الخديوي اسماعيل ثم مآثره في عهد توفيق وهو في كل الأدوار البطل المغوار

حسنين حسن مخلوف
المدرس بمدرسة المعلمين بطنطا